(النسخ في القرآن الكريم)

ما قاله المفسرون في ذلك

قال تعالى في سورة البقرة ١٠٦ (ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير).

اختلف المفسرون في معنى هذه الآية وفي أنها هل تدل على أن آيات القرآن تنسخ بعضها بعضا أم لا. أما جمهور المفسرين فإنهم اتفقوا على أن آيات القرآن تنسخ بعضها بعضا واستدلوا بهذه الآية وبقوله تعالى في سورة النحل (وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون) وخالفهم في ذلك أبو مسلم الأصفهاني رحمه الله تعالى وقال إن القرآن ليس فيه منسوخ أصلا بقوله تعالى (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه) فلو نسخ شيئا منه لكان قد أتاه الباطل. وحمل قوله تعالى (ما ننسخ من آية) وقوله (وإذا بدلنا آية مكان آية) على آيات التوراة والإنجيل التي نسخت بآيات القرآن الكريم.

(ما قاله الأستاذ الإمام في ذلك)

أما الأستاذ الإمام فإنه وافق جمهور المفسرين على وقوع النسخ في آيات القرآن ولكن اعتمادا على الآية الثانية دون الآية الأولى حيث قال ما نصه (إذا وازنا بين سياق آية (ما ننسخ) وآية (وإذا بدلنا آية مكان آية) نجد بأن الأولى ختمت بقوله (ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير) والثانية بقول (الله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر) ونحن نعلم شدة العناية في أسلوب القرآن بمراعاة هذه المناسبات فذكر العلم والتنزيل ودعوى الافتراء في الآية الثانية يقتضي أن يراد بالآيات فيها آيات الأحكام.

وأما ذكر القدرة والتقرير بها في الآية فلا يناسب موضوع الأحكام ونسخها وإنما يناسب هذا ذكر العلم والحكمة فلو قال (ألم تعلم أن الله عليم حكيم) لكان لنا أن نقول أنه أراد نسخ آيات الأحكام لما اقتضته الحكمة من انتهاء الزمن والحال التي كانت فيها تلك الأحكام موافقة للمصلحة.

ثم قال والمعنى الصحيح الذي يلتئم مع السياق إلى آخره أن الآية هنا هي ما يؤيد الله تعالى به الأنبياء من الدلائل على نبوته أي (ما ننسخ من آية نقيمها دليلا على نبوة نبي من الأنبياء أي نزيلها ونترك تأييد نبي آخر بها أو ننسها الناس لطول العهد بمن جاء بها فإننا بما لنا من القدرة الكاملة والتصرف في الملك نأت بخير منها في قوة الإقناع واثبات النبوة أو مثلها في ذلك) إلى آخر ما ذكره الأستاذ الإمام في هذا المعنى.

(ما أفهمه في المراد من الآية وأدلتي عليه)

أقول يحتمل أيضا أن يكون المراد من الآية في قوله (ما ننسخ من آية) الآية الكونية أي ما ننسخ من آية من الآيات الكونية الدالة على وجود الله تعالى ووحدانيته وقدرته حتى نأتي بآية خير منها أو مثلها في ذلك كما قيل (وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد) وننسخ الآيات الكونية وإنساؤها للناس وتبديلها بغيرها أدل على قدرة الله تعالى وأنسب بتعبير الآية بقولها (ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير) إذ أن تغيير الآيات الكونية ونسخ بعضها ببعض لا يزال موجودا من ابتداء الخلقة إلى نهايتها. فمثلا كانت

الإضاءة بالزيت فنسخت وأنسيت وبدلت بالإضاءة بالغاز (البترول) ثم نسخ الغاز وأنسي بالكهرباء وكذلك كان السفر بالركوب على الدواب فنسخ وأنسي بالركوب في القطار الحديد ثم بالأتومبيلات ثم بالركوب في الطيارات وكانت المخابرات بالتحارير ثم صارت بالتلغراف ثم بالتليفون ثم بالراديو. وكانت الحروب بالسيف والرمح فنسخ وأنسي وبدل بالبارود والرصاص والمدفع ثم بالدبابات ونافثات اللهب والألغام الأرضية وبالبوارج والمدمرات والغواصات البحرية وبالطائرات والقنابل المتفجرة والصواريخ المحرقة السماوية ثم بالقنابل الذرية أي استخدام طاقة الذرة مما قد يكون سببا في تدمير سائر المدن وإهلاك جميع العوالم الأرضية إلى غير ذلك من الأشياء الكونية التي نسخ الله بعضها ببعض مما يدل على كمال قدرته على كل شيء وتصرفه في الكون بما يشاء حسب الآية القرآنية ودليلي على أن المراد من الآية في قوله (ما ننسخ من آية إلخ..) هي الآية الكونية حسبما بينا وليست هي الآية بمعنى المعجزة التي تثبت نبوة الأنبياء حسبما بين الأستاذ الإمام أن القرآن مشحون بذكر الآيات بمعنى مخلوقات الله الكونية المتتالية، وإبداعاته العظيمة المتعاقبة وآياته الكونية المستحدثة النافعة كالمخترعات العصرية العجيبة والآيات الحديثة والقديمة التي تدل كلها على وجوده ووحدانيته وعلى عظيم قدرته وجلال عظمته.

فمن ذلك قوله تعالى (إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار، والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها، وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون) فها هو الله تعالى قد سمى كل ما في هذه الآية من المخلوقات الكونية آيات للعقلاء على وجوده وقدرته.

ومنها قوله (وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون) وقوله (ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا وينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون). وقوله (وإن لكم من الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا إن في ذلك لآية لقوم يعقلون) وقوله (ومن الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون) إلى غير ذلك من آيات القرآن الكثيرة التي إنما تريد من الآيات المذكورة فيها الآيات الكونية القديمة والحديثة التي تدل على وجود الله وعظيم قدرته وجميل إبداعه في كل زمن من الأزمان ولا تريد معجزات الأنبياء التي تثبت نبوتهم كما يقول الأستاذ الإمام لأن معجزاتهم إنما هي روحية معنوية لا مادية كونية كما أثبتنا ذلك بالأدلة القرآنية والبراهين العقلية في غير هذا المكان.

خصوصا وإن معجزات الأنبياء التي تثبت نبوتهم ليست دائمة بل متقطعة في أزمان متباعدة بل انقطعت بالفعل بعد ختم النبوة بمحمد صلى الله عليه وسلم. وحينئذ فلا يكون لله معجزات فيما بعد بخلاف ذلك على تفسيرنا الذي يفيد أن آيات الله الكونية المعجزة الناسخة والمنسوخة لا تزال قائمة إلى الأبد حسبما يشعر بذلك تعبير القرآن بالفعل المضارع في قوله (ننسخ) الذي يفيد أن الآيات المنسوخة توجد في المستقبل كما توجد في الماضي. وبالجملة فإن ما قاله الأستاذ الإمام في تفسير (ما ننسخ من آية) ضعيف في ذاته وكذا اعترافه بأن آيات القرآن تنسخ بعضها بعضا فإنه ضعيف أيضا.

وأما ما قاله أبو مسلم الأصفهاني من أن المراد من الآيات المنسية أو المنسوخة هي آيات الكتب السابقة وأن الآيات الناسخة هي الآيات القرآنية فهو حسن من جهة عدم اعترافه بنسخ آيات القرآن بعضها ببعض، فقوله وقولي وإن اختلفا في المراد من الآيات المنسوخة والمنسية إلا أنهما متفقان في أنه ليس المراد بها آيات القرآن أصلا وان القرآن لا نسخ في آياته أبدا وكلا القولين صحيح ولا تعارض بينهما إلا أن ما قاله الأصفهاني لا يكون خاليا من الاعتراض إلا إذا بيناه حسبما يأتي. وهو أن يكون معنى (ما ننسخ من آية) جاريا على سبيل التوزيع أي ما ننسخ من آية من آيات الكتب السابقة إلا ونأتي في القرآن بخير منها وأنفع للعباد وما ننسخ آية من آيات تلك الكتب كما قال تعالى عن أهل الكتاب (ونسوا حظا مما ذكروا به) إلا ونأتي في القرآن بمثلها عوضا عنها على سبيل التوزيع في ذلك أي إنا جعلنا القرآن كافيا وافيا مشتملا على مثل وعوض ما نسيه أهل الكتاب من كتبهم مما لو بقى لكان فيه مصلحة وجعلناه أيضا ناسخا للآيات التي فرغت المصلحة منها بإتيانه بخير منها أو أنفع فلفظ (خير منها) راجع للنسخ ولفظ (مثلها) راجع للنسيان على التوزيع أي أن النسخ يكون عند إرادة الإتيان بخير منها والإتيان بالمثل يكون عند النسيان أي ما ننسخ من آية إلا ونأتي بخير منها ولا ننسها إلا ونأتي بمثلها.

وعلى فهمنا هذا يندفع ما يمكن أن يقال أنه لا فائدة من الإتيان بالمثل عند النسخ كما أنه لا فائدة منه عند النسيان أيضا مادام قد أتى فيه بما هو خير وأحسن أما إذا فسرت الآية بما فهمنا من التوزيع أي أنه يأتي بخير منها فقط عند النسخ حتى تكون هناك فائدة من النسخ ويأتي بمثلها فقط عند النسيان عوضا عما نسيه أهل الكتاب فإن الآية حينئذ تكون ظاهرة لا اعتراض فيها ولا غبار عليها من هذه الجهة.

وكذلك قوله تعالى في سورة النحل (وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون) هو بهذا المعنى أيضا أي أن المبدل إنما هو من آيات الكتب السابقة والبدل هو من آيات القرآن أي أن الله تعالى أعلم بما ينزله في القرآن من أن بعضا منه قد كان عوضا عما نسي وفقد من آيات الكتب السابقة. وبعضا منه كان نسخا لما لا فائدة لبقائه فيها وبعضا منه كان تشريعا جديدا حسب ما يلزم لرقي الإنسان وكمال سعادته بنسبة زمنه.

والدليل على ما أقول أمور (أولا) أن الله تعالى قبيل قوله (ما ننسخ من آية) قال (ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم خير من ربكم والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم) فإن هذه الآية تشير إلى ما هو المقصود من قوله عقبها (ما ننسخ من آية) أي ما ننسخ من آية من آيات كتب أهل الكتاب حتى نأتي بخير منها بما أنزلناه عليكم من خير القرآن وما ننسى أي ما ننسي الناس آية من آيات تلك الكتب حتى نأتي في القرآن بمثلها عوضا عنها فالقرآن قد أنزل فيه كثير مما هو خير من الكتب السابقة وكثير مما هو مماثل لها حسب اللزوم والاقتضاء والداعي، ولكن أهل الكتاب لا يودون أن ينزل عليكم ما ينسخ كتبهم أو ينسيها بما هو خير منها أو مثلها مع أن الله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم على كل العالمين لا على خصوص بني إسرائيل الذين يعتقدون أن النبوة مخصوصة بهم ومحصورة فيهم.

(ثانيا) أن الله تعالى بعد قوله (ما ننسخ من آية إلخ) قال (ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق) مما يشير إلى أن آيات كتب أهل الكتاب بالنظر لكونها نسخت وأنسيت بآيات القرآن فقد ود كثير منهم أن يردوكم إلى ما كنتم عليه من الكفر بالقرآن خوف أن هذا القرآن ينسخ وينسى كتبهم بعد ما تبين أنه الحق.

(ثالثا) أن قوله تعالى في سورة النحل (وإذا بدلنا آية مكان آية الله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون قل نزل روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين) ليس فيه صراحة بأن الآية المبدلة هي من آيات القرآن وما دام ليس صراحة بذلك فأي داع يدعونا لجعل هذا المبدل من القرآن ولنا مندوحة عنه.

(رابعا) إن قولهم لمحمد صلى الله عليه وسلم (إنما أنت مفتر) أي سبب أنك أبدلت ما هو منزل وثابت في الكتب الأولى بكلام من عندك إذ أن دعوى الافتراء إنما تكون بمخالفة ما هو معلوم وثابت عند المدعي والمعلوم الثابت عنده إنما هو آيات الكتب السابقة. أما آيات القرآن المبدلة فليس كذلك عند مدعي الافتراء حتى بعد تبديلها افتراء عنده. وهذا يضعف ما قاله الأستاذ الإمام في هذه الآية وما قاله المفسرون أيضا فيها من أنها تدل على أن القرآن ينسخ بعضه بعضا.

(خامسا) إن قوله تعالى في نفس هذه الآيات (قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين) صريح في أن آيات القرآن ليست هي المبدلة لأن ما جعله الله مثبتا للمؤمنين لا يصح أن يكون متقلقلا بالتبديل والتغيير لأن الذي يتبدل ويتغير من آن إلى آخر لا يكون سببا في التثبيت وإنما يكون سببا في التزعزع والتقلقل والشك.

(سادسا) إن آيات القرآن لا يصح أن يقال فيا أن بعضها خير من بعض لأنها كلها شريعة واحدة ولكن قد يقال أن شريعة خير من شرعته أو بعض ما في هذه الشريعة خير من بعض ما في الشريعة الأخرى ولكن الشريعة الواحدة كيف يكون بعضها خيرا من بعض وكل شيء منها في محله هو خير من غيره وبالجملة إن قوله تعالى (ما ننسخ من آية أو ننسها إلخ..) وقوله (وإذا بدلنا آية مكان آية إلخ..) لا يدل واحدا منهم على وجود نسخ ونسيان في القرآن أو تبديل وتغيير فيه بل النسخ والنسيان والتبديل المذكور فيهما إنما هو نسخ ونسيان وتبديل الآيات الكتب السابقة فقط بآيات القرآن دون آيات القرآن بعضها ببعض كما وضحناه وكما يدل عليه قوله تعالى عن أهل الكتاب (ونسوا حظا مما ذكروا به) حيث تدل على أن النسيان إنما كان في الكتب السابقة.

وأما ما ذكره الفقهاء والمفسرون من حوادث النسخ في القرآن بعضه ببعض أو نسخه بالحديث فإنك إذا تأملت جيدا في كل ما ذكروه من ذلك لا تجد حادثة واحدة تدل على أن القرآن نسخ وأبطل بعضه بعضا أو أن الحديث نسخه وأبطله بل كل هذا الحوادث إنا هي من باب رفع دلالة العام أو المطلق أو الظاهر أو المجمل أو غيرها بالتخصيص أو التقييد أو البيان أو حمل المطلق على المقيد أو المقيد على المطلق لأن التقييد لا ينافي الإطلاق دائما إذ ربما كان القيد لمعنى آخر غير رفع حكم المطلق كالأمر بمواساة الفقراء مطلقا ثم الأمر بمواساة الضعفاء والمرضى فإن ذلك لا يرفع حكم مواساة الفقير إذا كان غير ضعيف ولا مريض ولكن النص على هذا الضعيف والمريض إنما كان لزيادة التأكيد في حقهما.

(ص٩١) .... الجملة فإن الموجود في القرآن ليس هو نسخ آية بآية وإبطالها بها وإنما .... أو تقييد آية بآية أو تفسير وتبيين المقصود من آية بآية أخرى .... قد يتوهم منها لو بقيت على تقييدها أو إطلاقها وعدم بيان ... منها وهذا لا يسمى نسخا بالمعنى اللغوي.

..... عليه وما دام أن ما يتوهمه بعض الناس نسخا وإبطالا لبعض آيات ... يمكن حمله على غير ذلك فما هو الذي يدعونا حينئذ لجعله من باب .... والإبطال إلا إذا كان إطلاق لفظ النسخ عليه من باب الاصطلاح .... في الاصطلاح إذ أن بعض الفقهاء يسمون الاستثناء والشرط .... نسخا أيضا من أن اللائق بالقرآن أن لا يسمى شيء مما وجد فيه ..... ذلك ونحوه نسخا إنما يسمى كل باسمه الخاص به فقط.

وبما تقدم لك من البيان يمكنك أن تقول أنه لا وجود للنسخ الحقيقي والإبطال ولا للتبديل والنسيان في شيء من آيات القرآن قال تعالى (لا تبديل لكلمات الله) وقال أيضا (ما يبدل القول لدي) وقال (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) والمبدل والمنسوخ إنما هو مضاع لا محفوظ وفحفظ القرآن يستلزم عدم تبديله وعدم نسخه وعدم إنسائه والله أعلم بمراده.